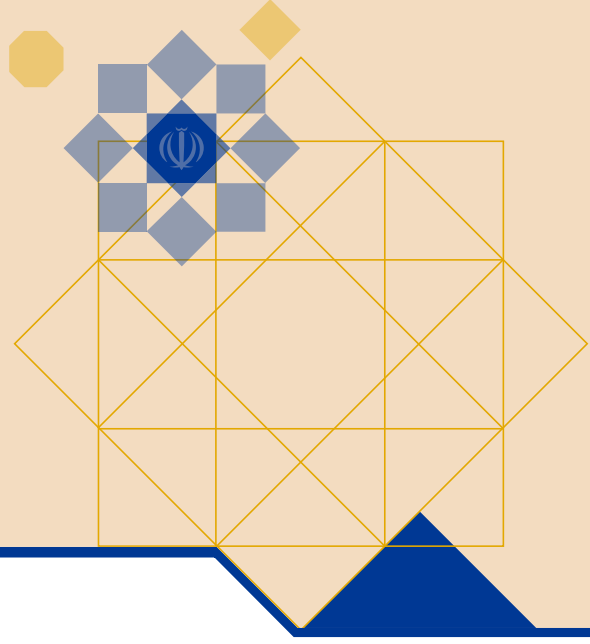


The image features a white background with decorative geometric elements. In the top-left corner, there is a gold-colored grid of lines forming squares and triangles. In the bottom-right corner, there are several overlapping geometric shapes in shades of blue, including a large square, a triangle, and a smaller square, creating a modern, abstract design.

فن مکتبتنا



ياقوت من خوابی الشقیف: الأدب المقاوم اهتدى لصالته

قراءة لرواية
«ياقوت من خوابی الشقیف»
لعهدي الموسوي

د. محمّد ناصر الدين(*)



«والآن، وأنا أنساب بين جبل عاملة
والجليل، أراهما تداخل أرض، صوتاً
وصدى، تيناً وزيتوناً، شعوباً وقبائل
تلاقوا وتعارفوا، فمنهم الكريم التقيّ
ومنهم اللئيم الشقيّ، وبين هذا وذاك
أسرار وأساطير، والأسماء فيها رموز
سحرية، بل شرارات إذا ما وجدت
من يقدر زنادها، فإنّها تضم حرائق
الذكريات وصورها»:

(*) مواليد بلدة سُجُد في جنوب لبنان ١٩٧٧. الشاعر والمترجم والمحرر الرئيسي في ملحق كلمات لجريدة الأخبار اللبنانية. حائز على دكتوراه في الفيزياء الطبيّة من جامعة تور- فرنسا. استاذ محاضر في الجامعة اللبنانية والجامعة الأمريكية في بيروت. حصل سنة ٢٠٢٢ على منحة الكتابة الإبداعية في جامعة ايوا، الولايات المتحدة الأمريكية. له عدّة مجموعات شعرية وترجمات من الفرنسية والإنجليزية.

مع رواية عدي الموسوي «ياقوت من خوابي الشقيف» الصادرة أخيراً عن دار البيان العربي (٢٠٢٣) يمكننا القول بثقة إنّ الأدب المقاوم قد اهتدى أخيراً إلى ضالّته في وقت ولدت فيه المقاومة -ولا سيما الإسلاميّة في الجنوب اللبناني- في أزمنة التباس كثيرة، بين الدينيّ والعلمانيّ، الدينيّ والطائفيّ، المحليّ والأجنبيّ، إلى جانب الصراعات المحيطة بها من تقاتل مصالح عسكريّة واقتصاديّة عظمى وتنازع عرقيّ ولغويّ وقوميّ ومذهبيّ: يستبطن عدي الموسوي روح المقاومة على مرّ التاريخ ليبدأ روايته من حصن الشقيف في أعالي جبل عامل حيث تقف ثلّة من عسكر الأمير حسام الدين بشاره المدافعين عن القلعة القائمة على كتف الليطاني وترفض تسليم القلعة لفرسان الداويّة الصليبيّين، بعد تسوية عقدها معهم أحد الأمراء الأيوبيّين ضمن صراع ورثة صلاح الدين الأيوبيّ على الملّك من بعده.

يلجأ الموسوي إلى تقنيّة سردية متقنة إذ ينكشف البصر لبشارة الصبّان، الذي يستشهد في القلعة، استناداً إلى الآية القرآنية «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» التي يستلهمها الصوفيون في مقامات المكاشفة، لتنتقل روحه ذهاباً وإياباً في التاريخ والجغرافيا قبل وبعد ولادته بشكل أثري شفاف، ويروي تاريخ عائلته ونسبه الذي امتزجت فيه دماء المقاتلين التركمان والأرومة الأصيلّة لأهل جبل عامل: في سرد ثلاثي الأبعاد، تتشابك سيرة التركمان السلاجقة الذين قاتلوا الروم والفرنجة لا سيما في معركتي ملاذكرد وموقعة سهل سمردا قرب حلب، بسيرة العامليّين الذين رزحوا طويلاً تحت نير الاحتلال الصليبيّ لبلادهم التي كانت بمثابة الغلاف الحيويّ لبيت المقدس وتنظيمهم للمقاومة السريّة ضدّ الصليبيّين في نواحي صور.

تتقدّم رواية الموسوي لتشبه تواريخ البطولة والرفض بعضها ببعض لتروي لنا الكثير من وقائع التاريخ مثل حصار صور وسقوطها بيد الفرنجة، وانتصار صلاح الدين في حطين، ثم نكسة جيشه في معركتي أرسوف وعكا، وتواريخ الصليبيّين في عكا وصيدا وصور دون أن تكون رواية تاريخيّة مثل تلك التي نعرفها مع جرجي زيدان أو غيره، مع ما يقتضي هذا الفنّ من التسلسل التاريخيّ والأمانة الحرفيّة في نقل المعارك

والوقائع، إذ تكتنفها الكثير من الرمزية مثل تلك الياقوتة الحمراء التي يحرس الفرسان المقاومون أبًا عن جدّ على حفظها وصونها من الجدّ الأوّل «مافي جقمق» مرورًا بحفيده بشارة الصبّان الذي تبصر روحه كتيبة «الجرمق» في المقاومة الفلسطينية تقاوت ذودًا عن القلعة، والشهيد محمد حميد أو «الشهيد الحي» الذي اشتبك مع كتيبة كاملة من الجيش الإسرائيلي أسفل القلعة، ليكمل الموسوي بذلك البعد الثالث والأهمّ في الرواية والمتمثّل بربط السرد مع الملحمة البطولية للمقاومة في جبل عامل منذ زمن الاجتياح وحتى لحظة التحرير.

ليست الياقوتة سوى صورة رمزية للمقاومة التي يبذل دونها الأبطال والشرفاء والفرسان وأهل الأرض الغالي والنفيس، وليست القلاع سوى سجلّ وذاكرة لفعل النضال والرفض بحيث تقوم الصلة بين قلاع الشقيف وصور وحلب: «هل شعرتم يومًا، يا صحبة التطواف، بأنّ هناك قرابة ونسبًا بين القلاع والحصون؟ يشعر كثيرون بها حين تنقلهم تصاريق الدهر من أرضٍ على أخرى، فإذا طالعوها استجمعوا كلّ مهاراتهم بالمقارنة لإيجاد الشبه بين ملامح برج مكين بآخٍ في قلعة من القلاع، وبين تفاصيل بوابة هذه القلعة ومدخل ذلك الحصن، فيغدو الواحد منهم كمن يستنطق غمازة الدقن، وتقوّس الحاجب، وتمش الأنف... هكذا الأمر هنا مع قلعة حلب، أبصر حجارتها الشهباء، فأرى فيها حصن الشقيف الذي تفصله عنها فجاءٌ وسهول وفقار وجبال». بالحرص على عدم تهميش العنصر التركمانيّ في الحضارة الإسلاميّة، ولا سيّما في صفحات الجهاد ضدّ الغزاة الصليبيين، واستحضاره لصور مشرقة من وقوف المسيحيين المشرقيين إلى جانب إخوانهم المسلمين بمواجهة الغزو الصليبيّ الاستعماريّ، يحرس الموسوي على توسيع دائرة المقاومة لتشمل جميع الرافضين للاحتلال والهيمنة من الزمن الصليبي حيث «عسكر كثيف يطوّق الحصن (الشقيف) ويدكّه بقذائف المنجنيق فتهوي راية إلى الأبد وتعلو راية المماليك بأسدها الأسود المتوثّب تارة وبهلاليتها الأبيضين»، مرورًا ببطش أحمد باشا الجزائر الذي يقتحم جنوده الحصن «ويخرجون منه أكداً من الكتب والمجلدات ويقتلعون بابه المدرّع بالحديد

ويحملونه على عربة ثمّ تندلع في الحصن النيران»، ثم رحيل العثمانيين وقدم الغزاة الفرنسيين ليبيصر الراوي «أدهم خنجر يأمر رجاله بالحذر والاحتماء، فيسارعون إلى الخندق الصخريّ المحفور أمام الحصن وقرب الأجران الصخرية المنحوتة وشمالاً عند الروابي التي تلامس بركة ماء كبيرة، أرى عسكرياً بخيول ومدافع، على وجوه الضباط سحنات تذكّرني بالفرسان الفرنجة الذين طالما قاتلناهم بين صور وعكاً وبيروت ومرج العيون واليوم تفرغ فوقهم رايةٌ مثلثة الألوان»، وانتهاءً برحيل المحتلّ الإسرائيليّ عنها ذليلاً يجرّ أذيال خيبته، إذ يبصر «بشارة الصّبّان» اجتماعاً لعدي وصحبه عند حصن الشقيف عام ٢٠٠٠ على منصّة إذاعة النور فيتمنّى لو كان قادراً على اختراق الحجب وإخبارهم أنّ «هذا الحصن قد عرف حكاية صمود جمعت رجالاً من أرض عاملة والجليل واليمن وحتى من ديار بكر!».

«ياقوت من خواي الشقيف» هي رواية المقاومة بامتياز، المقاومة المشرقيّة والإسلاميّة والفلسطينيّة في مواجهة اللحظة المتوحّشة الغربيّة والصهيونيّة، رواية من يتعمّد صنّاع الأكاذيب اليوم طمس سيرهم من كتب التاريخ، والتعتيم على صفحات نضالهم المنطلقة من قيمهم وتراثهم وثقافتهم لمقارعة الغزاة والمحتلّين مهما تعدّدت وجوههم وراياتهم، وللفكر الظلاميّ التكفيريّ صنّعة هؤلاء الغزاة؛ إنها رواية طالعة من هذا الفجر الجنوبيّ الأصيل الذي تُوجّ بلحظة ٢٥ أيار التاريخية من العام ٢٠٠٠، النصر المرتبط بتاريخٍ طويل من العزّ والكرامة ونخوة أهله من فرسان وفلاحين وشهداء ومتصوّفة، النصر الذي انتصرت فيه ياقوتة الدم على السيف.